

يقول «أسامة بن زيد رضي الله عنهما: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه: إن ابنا لي قبض فائتتا. فأرسل يقرئ السلام: ويقول: إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب. فأرسلت إليه تقسم عليه لياأتينها.

فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقمقع.... كأنها شن<sup>(١)</sup> ففاضت عيناه. فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»<sup>(٢)</sup>.

وما هذا النبي إلا رحمة مهداة..

كان لا يشغله اهتمامه بشؤون أسرته عن الاهتمام بقضايا أمته ومواصلة رسالته.

ها هو يستدعي أحد القادة الذين برزوا سريعاً وبشكل ملفت (خالد بن الوليد) ويطلب منه التوجه نحو منطقة يسكنها بنو جذامة، وهم حتى الآن في موقف يبدو غامضاً تجاه الإسلام ودولته، فتحرك خالد بن الوليد رضي الله عنه مأخوذاً بحماس المنتصر العائد من فتح مكة، وإخضاع أكبر قبائل الجزيرة (قريش) لدولة الإسلام، لكن أحداثاً غريبة ومؤسفة لا تحسب على الإسلام وقعت في:

### غزوة بني جذيمة.. ومأساة عاشق وحبيبته

لم ينطلق ابن الوليد وحده نحو بني جذيمة، فمن مكان لا أعرفه لكنه مفعم بالعواطف القاتلة.. كان هناك شاب يعشق فتاة يقال لها (حبيش) وهي تبادل له العواطف نفسها.. كان حباً عذرياً لم يتدنس برذيلة، أو يتلوث بعهـر. لكن ذلك العفاف لم يسلم من المنغصات، فقد قدم الجاه والمال مع أمير لينتزعا حبيشاً من بين عيني عاشقها ومضاربه، لتتطلق العير، وتتمايل الهودج بحببش ووصيفاتها، فيتحطم قلب العاشق ويرغم صاحبه على التحرك، فينطلق خلفها كالمجنون.. عابراً المفاوز والمغاوير لا يعرف

(١) كأن قعقة نفسه صوت قرية بالية عند تحريكها.

(٢) صحيح البخاري ٥-٤٣١. ومكان النقط: قال حسبه أنه قال

وجهة غير وجهة هودجها، ولا عنواناً غير عنوان طويل تكتبه آثار راحلتها.. كان سفرها الطويل يلهب قلبه، ويلهم شعره حتى توقفت تلك المطايا في آخر المحطات، ونهاية الأسفار، حيث بلغ الجنون والوجد ذروته، ولم يبق في عقل العاشق وقلبه مكان لغير الحبيبة حبيش.. توقفت الرواحل عند ماء (بني جذيمة) وفي الوقت الذي وصلت فيه خيل خالد بن الوليد، وهنا أصبح العاشق أمام حنفيين.. حنفت حبيش وحنفت جيش.

كان ذلك العاشق لا يبالي بأمر خالد، فهو لا يعرفه ولا يعرف رسالته، ولا يهيمه أمر ما أرسل به، ولا ما يتحدث هو وجيشه عنه.. كان مأخوذ القلب والعقل، وهو في حالة ذهول تام عما حوله من جيش وسيوف وحتى منطلق، أو حتى مجرد رغبة في الحياة.

توقف خالد بن الوليد وكان من بين جنده شاب تضلع بسنة النبي ﷺ وهدية وسمته.. هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، وقد كان جندياً مطيعاً لإمامه الذي عينه عليه النبي عليه السلام، غير أن ذلك الجندي المطيع لله ولرسوله وولي أمره.. سرعان ما أبدى احتجاجه على أميره وتبرمه من تصرفه. كل ذلك كان يحدث دون حقد، أو شحناء بين الشباب وقائده.. إنما هي الحرية التي منحها الإسلام لأتباعه في محاسبة القائميين عليهم، وإنكار المنكر حتى في حالات تفوق حالات الطوارئ خطورة كحالة الحرب التي يخوضها ابن الوليد اليوم.. تلك الحرية التي جعلت فتى الإسلام يقول: «بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فقالوا: صيأنا صيأنا.

فجعل خالد يقتل ويأسر ودفن إلى كل رجل منا أسيره فأمر كل رجل منا أن يقتل أسيره. فقلت: والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره»<sup>(١)</sup>.

لكن خالداً رضي الله عنه أصر على حكمه، وأن هؤلاء يملكون وقاحة وتحدياً للإسلام في ساحة حرب لا يردعه سوى السيف، فقام بتوزيع الأسرى لتنفيذ حكم القتل فيهم، وكان بين هؤلاء الأسرى شاب في مثل سن أسره.. شاب مسكين لم يكن من أهل هذه الديار، ولا شأن له بما يحدث، فهو في واد والعالم كله في واد.. شاب قاده قلبه المسكين وضعف إرادته، وعدم معرفته بدين التوحيد إلى التيه في الصحاري..

(١) صحيح البخاري ٦-٢٦٢٨.

خلف هذا الهودج الذي تتربع فيه معشوقته ومهوى فؤاده التي تدعى حبيشاً . لم يكن يريد من الدنيا سواها .. سوى التأمل في عينيها ، لكن راحلته ساقته ليلتقي بسيف خالد بن الوليد ، وهو الآن مأسور عند شاب اسمه ابن أبي حدرد . فما هي :

## قصة عاشق حبيش

هي قصة ليست من خيال الأدباء والروائيين .. هي حقيقة مرة يرويها من شارك في أحداثها .. معترفاً بالمأساة التي ارتكبتها ، ويستغفر الله من ذلك .. يرويها شاب اسمه : ابن أبي حدرد .. كتب نهاياتها بيده ، وأسدل ستائرهما على أرض بني جذيمة .

بداياتها في مراتع الصبا ، حيث شب فتى وشب معه عشق فتاة تدعى حبيشاً .. بادلته الفتاة بحب أضناها وأرقها ، لكن والد الفتاة كان يحول دونهما ، وأخلاق الفتاة كانت حارسة دون تلوث ذلك العشق بما يكدره ، وتمر الأيام فترتحل الفتاة عن عاشقها ، فيفقد صوابه وينسى كل شيء إلا مطيتها وهودجها ، ربما كان والدها أميراً فارتحل عن دياره وجيرانه ، وربما جاء أمير فأخذها إلى بيت أكثر ثراءً وجاهاً .

لكن يبدو أن الأمير لم يحمل في هودجه سوى جسدها ، أما قلبها فقد أردفه ذلك الشاب معه على راحلته ، يسير كلما سارت ويتوقف عندما تتوقف ، وفي ديار بني جذيمة توقفت القافلة ، وخلفها الشاب المتيم أمام جيش خالد ، فحدث ما حدث ، وأخذ الشاب أسيراً غير آبه بالأسر ، ولا بتلك السيوف ، ولا بهذه الحبال ، فالحبال التي تربطه بحبيش أقوى ، وأسرها لقلبه أقسى .

يقول ابن أبي حدرد : «كنت يومئذ في خيل خالد بن الوليد ، فقال لي فتى من بني جذيمة ، وهو في سني ، وقد جمعت يدها إلى عنقه برمة ، ونسوة مجتمعات غير بعيد منه : يا فتى ..

فقلت : ما تشاء ؟

قال : هل أنت آخذ بهذه الرمة فقائدي إلى هؤلاء النسوة حتى أقضي إليهن حاجة ، ثم تردني بعد فتصنعوا بي ما بدا لكم [إني لست منهم ، عشقت امرأة فلحقتها ، فدعوني أنظر إليها نظرة ، ثم اصنعوا بي ما بدا لكم] . قلت : والله ليسير ما طلبت .

فأخذت برمته، فقدته بها حتى وقف عليهن (فإذا امرأة طويلة أدماء) فقال:  
اسلمي حبيش قبل نضاد العيش:

أريتك إذ طالبتكم فوجدتكم بحلية أو ألفتكم بالخوانق  
ألم يك أهلاً أن ينول عاشق تكلف إدلاج السرى والودائق  
فلا ذنب لي قد قلت إذ أهلنا معاً أثيبي بود قبل إحدى الصفائق  
أثيبي بود قبل أن تشحط النوى وينأى الأمير بالحبيب المفارق  
فإنني لا ضيعت سر أمانة ولا راق عيني عنك بعدك رائق

قالت: [نعم فديتك] وأنت فحييت عشراً، وسبعاً وتراً، وثمانياً تترى...

قال: ثم انصرفت به فضربت عنقه<sup>(١)</sup>.

كانت المرأة تشاهد عاشقها وهو يضرب بالسيف.. تشاهد رأسه يهوى عن جسده  
الحبيب، فلم تحتلم، ولما سقط على الأرض تخلت عن وقارها وأسرارها، وانحدرت من  
هودجها غير أبهة بما حولها، ولا بمن حولها.. انحدرت نحو ذلك الجسد الذي هوى  
على الأرض كالفجيعة، وانحنت بمشاعر تنبض بالموت للموت.. «جاءت المرأة فوقفت عليه  
فشهقت شهقة أو شهقتين، ثم ماتت»<sup>(٢)</sup> وجداً عليه وحزناً، كأنها أقسى العشاق وأضعفهم.

كان الصحابة ينظرون إلى ذلك المشهد الفاجعة منهم الراض له والمتكدر كعبد الله  
بن عمر وأصحابه، ومنهم المندهبش الذي فوجئ بما حدث، والصحابة بشر يخطئون  
ويصيبون، لكن ما تقييم الإسلام لهذه المصيبة؟ وما موقف النبي ﷺ من فعل خالد  
ومن أطاع خالدًا؟

(١) سننه صحيح رواه ابن إسحاق: السيرة النبوية ٥-١٠٠: حدثني يعقوب بن عتبة بن  
المغيرة بن الأحنس عن الزهري عن ابن أبي حنبل الأسلمي.. يعقوب ثقة: التقريب  
٦٠٨ وشيخه تابعي ثقة وإمام معروف والزيادة سندها حسن رواها النسائي في الكبرى ٥-٢٠١ أنبأ  
محمد بن علي بن حرب قال أنبأ علي بن الحسين بن واقد عن أبيه عن يزيد النحوي عن عكرمة عن  
ابن عباس وهذا سند حسن من أجل علي بن الحسين فحديثه حسن إذا لم يخالف قال الحافظ صدوق  
يهم التقريب ٤٠٠، وللحديث شاهدان في كل منهما ضعف يسير عند البيهقي في الدلائل ٥-١١٦ وبقية  
رجال النسائي ثقات.

(٢) انظر ما قبله فهو جزء منه.

دفنت المعشوقة ودفن العاشق وبقية القتلى، وعاد الصحابة إلى المدينة مثقلين بالهموم والتساؤل، ولما وصلوا قال ابن عمر رضي الله عنهما «ذكرنا ذلك للنبي ﷺ فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد مرتين»<sup>(١)</sup>.

لم يكن الدافع لهذه الأحداث هو التعطش للدماء وشهوة السيطرة والتوسع، لكنها الغيرة على التوحيد، والحماس المفرط الذي يطفى على لغة المنتصر غالباً، وهو أمر لا يمكن تبريره تحت أي عذر، فهو خطأ من خالد دون جدال، وقد تولى النبي ﷺ تحمل مسؤولية ذلك الخطأ، ولم يتصل من تبعاته، بل لام أصحابه.

والنبي ﷺ بهذه البراءة من ذلك العمل الفظيع.. الذي استيحت فيه دماء بريئة.. يؤيد احتجاج الشاب عبد الله بن عمر على تلك الحادثة، وإنكاره على أميره في ساعة ليست من ساعات السلام والراحة، بل في ساحة حرب يحتاج فيها القائد إلى الطاعة والامتثال من جنده أكثر من أي شيء آخر، لكن الإنكار لا يعني الخروج على إمارة خالد والتمرد عليه أبداً، بل هو مجرد رد الأمير إلى الوحي والصواب الذي بعث به النبي ﷺ. فالأمير يظل بشراً مهما بلغت عظمته.

أما موقف النبي ﷺ الرحيم تجاه ذلك العاشق وما حدث له، فيحدثنا عنه ذلك الشاب الذي شارك في إيلام النبي ﷺ، وتألّم هو أيضاً مما اقترف.

ابن أبي حردد الذي أحزنه ما حدث منه تجاه ذلك المسكين يقول: «فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه الخبر. فقال رسول الله ﷺ: أما كان فيكم رجل رحيم؟!»<sup>(٢)</sup>. أما كان فيكم رجل رحيم، فالله غني عن تلك الدماء البريئة.. الإسلام غني عنها، ومحمد بريء مما حدث.. أما فيكم رجل رحيم يمنع حدوث ذلك المشهد المؤلم، الذي لم يكن من المفترض حدوثه، فالنبي ﷺ لم يبعث هذه السرية لإرغام الناس على الإسلام، والقائد المسلم يحتاج إلى إعادة النظر كثيراً، والتفكير أكثر قبل اتخاذ قرار بقسوة قرار خالد بن الوليد رضي الله عنه، فالرحمة هي التي جعلت النبي ﷺ يحجم عن قتل الأسرى في بدر.. رغم تاريخ بعضهم الأسود ضده وضد أصحابه، وأين هؤلاء

(١) هو حديث البخاري السابق.

(٢) حديث صحيح وهو جزء من حديث النسائي السابق.

من أسرى بدر! والرحمة هي التي جعلت النبي عليه السلام يعفو عن صناديد قريش، فما بالك في أناس أبرياء أرادوا أن يقولوا: أسلمنا. فقالوا: صباناً. أي صباناً من دين قومنا، فما بالك برجل عاشق لا ناقة له ولا جمل فيما يجري على الكرة الأرضية.

كان الأمر شديداً على النبي ﷺ، لكنه لم يكتف بالحزن فقط، أو البراءة فقط.. لقد مضى الأمر وأصبح تاريخاً، ولم يعد بالإمكان فعل شيء تجاه ذلك سوى الحزن، ومحاولة التعويض ولو مادياً، حيث اتخذ النبي ﷺ قراراً بدفع تعويضات للمتضررين عن ذلك الذي أحدثه تسرع خالد وحماسه، فقد قال ﷺ «أما كان فيكم رجل رحيم.. فداء الإثنى بالواحد»<sup>(١)</sup>.

ودفعت التعويضات من قائد الدولة الكبرى والوحيدة التي تكاد تسيطر على كل الجزيرة العربية كلها.. دفعت التعويضات لأهل المقتولين خطأً، فأدرك أولئك عظمة هذا الدين، وهذا القائد الذي يدفع تعويضات وهو في حالة حرب، فالحرب الإسلامية لها قواعد لا يجوز انتهاكها، وقد تم اختراقها خطأً، فلا بد من الالتزام تجاه العدو في هذه الحالة، أما المخطئون فقد استغفروا ربهم وواصلوا حياتهم مع نبيهم وإخوانهم.

وفي هذا العام مرت بالمدينة أوقات عصيبة وظروف صعبة.. رغم وجود النبي ﷺ بين أظهرهم، ولما اقترب وقت نضج ثمارهم أمرهم النبي ﷺ بالاستعداد للتوجه لمناجزة الروم على أرض تبوك.. بجيش كان بحاجة إلى كل شيء إلا العزيمة والإيمان، فقد كان يعاني من قلة المال والطعام والمراكب، وكانوا يتطلعون إلى هذه الأوقات ليستريحوا ويتمتعوا بظل المدينة وثمارها التي بدأت في النضج، لكن كيف سيتم:

## تجهيز جيش تبوك في ساعة العسرة

فهو جيش كبير يتجاوز عدده عدد جيش الفتح، ولم تكن هناك ميزانية للتسلح، فالكمل كانوا جنوداً للإسلام.. الكل كانوا أصحاب مبادئ وأهداف، لا أصحاب وظائف ومرتببات.. الكل يساهم حسب طاقته وإمكاناته، فلا إكراه ولا ضرائب ولا مكوس، وهنا و:

(١) حديث صحيح وهو جزء من حديث النسائي السابق.

## في مثل هذه الظروف يشرق عثمان بن عفان

يشرق الكرم العثماني، ليؤسس نموذجاً راقياً لرجل الأعمال المسلم الذي لا ينظر إلى الدنيا من خلال الأرقام، بل ينظر إلى الأرقام من خلال الدنيا والآخرة معاً، وليست هذه هي المرة الأولى التي ينفرد فيها عثمان بإنجاز، فقد قال النبي ﷺ «من يحضر بئر رومة فله الجنة؟ فحضرها عثمان.

وقال: من جهز جيش العسرة فله الجنة؟ فجهزه عثمان»<sup>(١)</sup>.

عثمان يتحدث عن ذلك عندما أشرف على الناس من فوق داره ثم «قال: أذكركم بالله هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال في جيش العسرة: من ينفق نفقة متقبلة؟ والناس مجهدون معسرون، فجهزت ذلك الجيش؟ قالوا: نعم. ثم قال: أذكركم بالله هل تعلمون أن بئر رومة لم يكن يشرب منها أحد إلا بثمن، فابتعتها، فجعلتها للغني والفقير وابن السبيل؟ قالوا: اللهم نعم... وأشياء عددها»<sup>(٢)</sup>. ومن المؤكد أن هناك من استجاب بسخاء لذلك النداء النبوي، لاسيما وأن هذه هي المرة الأولى التي يدعو فيها للتبرع للجيش، بينما كان في المعارك السابقة يدعو القادرين وأصحاب الرواحل للاستعداد، ولعل عمر بن الخطاب كان في سباق، لكن منافسه لم يكن يشعر به بقدر ما كان يشعر بنداء النبي ﷺ.

## عمر يحاول منافسة أبي بكر

يقول رضي الله عنه: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق ذلك مالا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً.

فجئت بنصف مالي فقال رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله.

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٣-١٣٥١.

(٢) سنده صحيح رواه الترمذي ٥-٦٢٥ حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن أخبرنا عبد الله بن جعفر الرقي حدثنا عبيد الله بن عمرو عن زيد بن أبي أنيسة عن أبي إسحاق عن أبي عبد الرحمن السلمي. السلمي صحابي وتلميذه تابعي ثقة مشهور وزيد ثقة التقريب ٢٢٢ وتلميذه الرقي ثقة التقريب ٢٧٢ (ملاحظة: ذكر الحافظ رحمه الله أنه من الثالثة وترجمته لا توحى بذلك والصواب أنه تابع تابعي لأنه يروي عن صغار التابعين كالأعمش وتلميذه ثقة أيضاً.

فأتى أبو بكر بكل ما عنده فقال: يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله. فقلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً<sup>(١)</sup>.

ولعل هؤلاء الثلاثة يجدون منافسة من رجل الأعمال الناجح المجاهد الرائع (عبد الرحمن بن عوف) الذي يقول: «إن رسول الله ﷺ قال: تصدقوا فإنني أريد أن أبعث بعثاً. فقال عبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله، إن عندي أربعة آلاف؛ ألفين أقرضهما الله وألفين لعيالي؟»

فقال رسول الله ﷺ: بارك لك فيما أعطيت، وبارك لك فيما أمسكت. فقال رجل من الأنصار: وإن عندي صاعين من تمر، صاعاً لربي، وصاعاً لعيالي<sup>(٢)</sup>.

لكن يبدو أن المنافقين لم يعجبهم هذا التسارع الجميل بالنفس والمال نحو تبوك، فقاموا بتعويض قصورهم بإطلاق الألفاظ الساخرة من المؤمنين.. يشفون بها تشوهات نفوسهم، ويطفئون بها جمر الحقد في قلوبهم «فلمز المنافقون وقالوا: ما أعطى ابن عوف هذا إلا رياء.. وقالوا: أو لم يكن الله غنياً عن صاع هذا.

فأنزل الله: ﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup>.

المنافقون هم علمانيوا ذلك الزمان.. لا يريدون للدين أي تأثير على حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وحتى العسكرية، وليس لديهم ما يقدمونه، فرسالتهم محصورة في محاربة النجاح والدهشة بما عند الأعداء، وحساباتهم للأموال تتطلق من الخواء الذي يملؤهم ويعيشون فيه، والاستهزاء بالآخرين، وإطلاق الكلمات الساخرة على الناجحين هو أسلوبهم، ولن يجدوا كغزوة تبوك أنسب لهذه السخرية..

(١) سنده حسن من أجل هشام رواه الدارمي ١-٤٨٠ أخبرنا أبو نعيم ثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه سمعت عمر والبقية ثقات، ورواه البزار ١-٢٦٣ حدثنا محمد بن عيسى نا إسحاق بن محمد الفروي نا عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر عن عمر، وفيه ضعف يسير من أجل عبد الله.

(٢) سنده حسن رواه الطبري ١٠-١٩٥ والبزار من طريق أبي عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه. وهو حسن من أجل عمر حفيد ابن عوف وهو حسن الحديث إذا لم يخالف قال الحافظ في التقریب صدوق يخطئ ٤٣١، وللحديث شواهد في الصحيح وغيره.

(٣) هو آخر الحديث السابق تفسيره.

كيف لا، وهؤلاء المسلمون ونبههم يريدون مواجهة جحافل أقوى دولة في الدنيا بجيش يجمع التبرعات، ويحتاج إلى نصف صاع وحبات تمر؟! هذه هي حسابات المنافقين، وهي حسابات تفتقد إلى الإيمان بالله، وتفتقد كذلك إلى الثقة بالنفس وقدراتها، لذلك بدأ:

## بعض المنافقين يعتذر عن المشاركة في غزوة تبوك

رغم توافر المال والراحة والصحة لديهم، لكنهم أحسوا بالموت يريض على أرض تبوك، ويحقد بالقادمين إليها، وقد ذكر الله اعتذارهم فقال سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أُنذُنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

وإذا كان المنافقون ييخون بأموالهم وأنفسهم عن صحبة النبي ﷺ، فإن هناك رجالاً يتحرقون للخروج معه عليه السلام.. رغم أنهم لا يملكون شيئاً، ولا يملك ما يحملهم عليه، فكانت لحظات الوداع.. لحظات من الدموع ف:

## عند الوداع بكى الرجال

فبعد أن رجوا النبي ﷺ أن يحملهم.. اعتذر من لهمهم وقال لهم: لا أجد ما أحملكم عليه.

عندها لمعت أعينهم وفاضت بالدموع، وعادوا من حيث أتوا مكسوري القلوب، وألم الحرمان يملأ صدورهم.. دموع تفيض لأن الفقر يحول بينهم وبين معانقة الموت والشهادة.. دموع خلدت أصحابها، وتردد ذكرها على مر الأجيال.

أولم يكفهم فخراً أن يذكر ربهم دموعهم، ويتحدث لعباده عنهم. نزل جبريل بكلام الله الذي يقول: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ

(١) التوبة: ٤٩.

رَجِيمٌ ﴿١١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّاتِمْ لِيَتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أُحِمْدُ مَا أَهْمَكُم عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَرَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿١٢﴾ ﴿١٣﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ ﴿١٥﴾

وهؤلاء الذين يستأذنونك هم المنافقون الذين يملكون من المال الوفاحة والأعدار أرسدة طائلة.. هذا أحدهم جاء يعتذر فقبل رسول الله ﷺ عذره، لكن لم يهنأ بالعودة حتى أنزل الله فضيحه آيات ترددها المدينة في الطرقات والمساجد والبيوت وتردها الدنيا.. نزل الوحي يفضح المنافقين، ويشد أزر المؤمنين الذين تتاقل بعضهم مفضلاً تأجيل الخروج إلى ما بعد الحصاد.

نزل الوحي يسلط الأضواء على زوايا المنافقين المعتمة، وأغوارهم المليئة بالأحقاد والكراهية فقال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَيْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا فَنَزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَدَّتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَحَرَجْنَا مَعَكُمْ يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا

بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ  
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ \* وَلَوْ أَرَادُوا  
الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا  
مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خَلْقَكُمْ  
يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدْ اِسْتَعْوَأَ الْفِتْنَةَ  
مِنْ قَبْلُ وَقَالُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ  
﴿٤٨﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي ۗ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ  
لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسَبِّحْهُنَّ وَإِنْ تُصِيبَكَ  
مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَنْ  
يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ  
هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ  
مِّنْ عِنْدِهِ ۗ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ  
كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِتْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ  
نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ  
وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ  
بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لِمَنْكُمُ  
وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَحْذَرُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَعْرَدًا أَوْ مَدْخَلًا  
لَّوَلُوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ  
يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا  
حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ۗ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ \* إِنَّمَا  
الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوقِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ  
وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمْ  
الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ  
لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾  
يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ

﴿١٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَبَى لَهُ تَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ  
 الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي  
 قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا وَإِنَّ اللَّهَ لَمُخْرِجٌ مِمَّا تَحْذَرُونَ ﴿١٤﴾ (١).

ويبدو أن هذه الآيات قد خنقت المنافقين فلم يجدوا هواءً يطيق صدورهم، ولا  
 أرضاً تحتمل خطاهم.. لقد حول المنافقون غزوة تبوك إلى مسرح كبير.. يسخر ون فيه  
 من جرأة المؤمنين على غزو الروم، ويتشفون فيه من قلة ما لهم ومتاعهم، وضعف حالهم.  
 فقلب الله عليهم مسرحهم ذلك، فتحطم فوق رؤوسهم، فأصبحوا خائفين.. خجلين من  
 أنفسهم، ومن الشوارع والأطفال والرجال والنساء، وحتى من نخيل المدينة وجدرانها.

أما المؤمنون فيذكروهم إلههم بحال نبههم عندما كان شريداً طريداً.. هو وأبو بكر  
 في غار ثور وكيف تحقق له نصر الله، وها هم الذين كانوا يطاردونه يتأهبون لغزو  
 الروم خلفه جنوداً مخلصين، وسيأتي اليوم الذي يتأهب الروم خلفه عليه السلام أو  
 خلف من يخلفه، ولكن حسابات المنافقين لا تتغير أبداً..

نهض الصحابة خلف نبههم في معركة تمحيص النوايا وتميز الإيمان، وإن كانت  
 خيبر تحمل بصمة لعلي رضي الله عنه، فإن بصمة عثمان كانت الأبرز على غزوة  
 تبوك، لكن ما الذي حدث لعلي هذه المرة.. إنه ليس ضمن المسافرين.. هل هو الرمد  
 مرة أخرى؟

### علي يتخلف عن تبوك

فقد سار النبي ﷺ مغادراً المدينة «ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى  
 غيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً  
 بعيداً، ومفازاً وعدواً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم  
 بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ (يريد  
 الديوان) (٢) فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي الله.

(١) سورة التوبة: [٣٨-٦٤].

(٢) أي ليس لهم دفاتر تدون فيها الأسماء.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه»<sup>(١)</sup> ثم خرجوا، وقبل خروجهم توقف، وتوقف معه علي رضي الله عنه معاتباً، ومتوسلاً أن يصحبه في هذا السفر الذي يحتاج إلى علي وأمثاله، ف«إن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك واستخلف علياً، فقال: أتخلفني والنساء؟ قال: ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبي بعدي»<sup>(٢)</sup>.

كان عليه السلام يثمن كل مجهود وكل مجتهد، وكان لا يغل أي دور يقوم به أحد من أصحابه، فلئن كان بقاء علي في المدينة يعني في نظره الغياب عن ساحة الوعى، فإنه في نظر النبي ﷺ يقوم بدور هارون.. عندما توجه موسى نحو جبل الطور وهو، دور لا يقل عن دور أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم. وقد كان عليه السلام يعين في كل غزوة رجلاً من أصحابه خليفة له على المدينة - العاصمة، واليوم هو دور علي. لكن علياً هنا تميز عن سابقيه بقرايته من النبي ﷺ، ولذلك استحق أن يكون بمنزلة هارون، لأن هارون عليه السلام كان خليفة وأخاً لموسى في الوقت نفسه.

يقوله سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «لما خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى تبوك خلف علي بن أبي طالب، فأتاه بالجرف يحمل سلاحه، فقال: يا رسول الله، أتخلفني بعدك ولم أتخلف عنك في غزاة قط؟ قال: يا علي.. ارجع. فقال: يا رسول الله، إن المنافقين يزعمون أنك إنما خلفتني إلا استثقلاً بي.

قال: يا علي، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي. ارجع فإخلفني في أهلي وأهلك»<sup>(٣)</sup>.

وهو تميز يضع لكل فرد من أفراد الأمة مساحة يطلق فيها إبداعاته، ويجسد فيها إنجازاته. فالله أنزل آيات كريمات في منزلة أبي بكر، وحاز عثمان على الجنة بتلك التبرعات السخية، ومن قبل تميز غيرهم بإبداعات رضي الله عنهم جميعاً، فمن

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٦٠٢.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٦٠٢.

(٣) سنده قوي رواه ابن إسحاق ومن طريقه الدورقي في مسند سعد ١-١٣٩: حدثني محمد بن طلحة بن يزيد عن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص أنه سمع أباه سعد. وإبراهيم تابعي ثقة من رجال الشيخين التقريب ٨٩ وتلميذه ثقة أيضاً التقريب ٤٨٥.

أراد أن ينظر إلى الصحابة نظرة الإسلام لهم، فليسלט أضواء الشمس عليهم جميعاً، ليرى كيف حركوا الدنيا، وشغلوا العالم بتكاملهم، وتنافسهم، وتميز كل فرد بقدرات وإنجازات وظفها النبي ﷺ أجمل ما يكون التوظيف. أما أولئك الذين يزورون حياة الصحابة باختزال الأضواء على حدث، أو فرد، أو يجعلون من بروز أحدهم انتقاصاً لغيره، فهم متعصبون يسيئون للأحداث، وللصحابة معاً، كما يسيء هؤلاء المنافقون الذين يزرعون المدينة بالإرجاف والتخذيل، والسخرية من ثقة المسلمين بأنفسهم، وجرأتهم على حدود أقوى دولة في الدنيا.

لم يكن علي وحده يلح في الخروج.. بعض المؤمنين المعدمين الذين تتنوع ظروفهم بهمهم يتوجهون نحو:

### النبي ﷺ وهو في حالة غضب

ربما من المنافقين.. أحد هؤلاء الفقراء رشحه أصحابه للتحدث، وهو أبو موسى الذي يقول: «أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله لهم الحملان، إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تبوك، فقلت: يا نبي الله.. إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم. فقال: والله لا أحملكم على شيء [وما عندي ما أحملكم عليه] ووافقته وهو غضبان ولا أشعر، فرجعت حزيناً من منع رسول الله ﷺ. ومن مخافة أن يكون رسول الله ﷺ قد وجد في نفسه علي، فرجعت إلى أصحابي، فأخبرتهم الذي قال رسول الله ﷺ، فلم ألبث إلا سوية إذ سمعت بلالاً ينادي: أي عبد الله بن قيس.. فأجبتة.

فقال: أجب رسول الله ﷺ يدعوك.

فلما أتيت رسول الله ﷺ قال: خذ هذين القرينين، وهذين القرينين، وهذين القرينين - لستة أبعرة ابتاعهن حينئذ من سعد - فانطلق بهن إلى أصحابك، فقل: إن الله - أو قال: إن رسول الله ﷺ - يحملكم على هؤلاء فاركبوهن.

قال أبو موسى: فانطلقت إلى أصحابي بهن فقلت: إن رسول الله ﷺ يحملكم على هؤلاء، ولكن والله لا أدعكم حتى ينطلق معي بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ﷺ حين سألته لكم، ومنعه في أول مرة، ثم إعطاه إياي بعد ذلك، لا تظنوا أنني حدثتكم شيئاً لم يقله.

فقالوا لي: والله إنك عندنا لمصدق، ولنفعلن ما أحببت.

فانطلق أبو موسى بنفر منهم، حتى أتوا الذين سمعوا قول رسول الله ﷺ ومنعه إياهم، ثم إعطاءهم بعد، فحدثوهم بما حدثهم به أبو موسى سواء<sup>(١)</sup>.. ثم انطلق الجميع خلفه عليه السلام محملين بالمعانة وشظف العيش، وقلّة الزاد وكثير من الإيمان، وقد «خرج يوم الخميس في غزوة تبوك، وكان يحب أن يخرج يوم الخميس»<sup>(٢)</sup> ولم يبق في المدينة سوى علي، وأهل الأعدار و:

### ثلاثة رجال من الأغنياء يتخلفون

عن مصاحبة النبي ﷺ رغم أنهم ليسوا من المنافقين، فأحدهم كان من أهل بيعة العقبة، وهو الصحابي الشاعر كعب بن مالك رضي الله عنه، الذي لم يتخلف عن غزوة أحد وما بعدها، بل إنهم كانوا من أهل الاستعداد والإعداد لهذه الغزوة. لكنه التسوية والثقة المفترطة بالنفس، والوقت الذي لا يعرف الانتظار.

يقول كعب عن ظروف تخلفه: «لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أنني كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد غير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد. ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حيث تواتقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها.

كان من خبري أنني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا وري بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً وعدواً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ -يريد الديوان- فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي الله.

(١) صحيح مسلم ٣-١٢٦٩ والزيادة له ١٢٦٨.

(٢) صحيح البخاري ٣ - ١٠٧٨.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أعدو لكي أتجهز معهم. فأرجع ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه.

فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحقهم. فغدوت - بعد أن فصلوا - لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً. ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئاً.

فلم يزل بي حتى أسرعوا، وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت. فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفقت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء»<sup>(١)</sup>.

كان كعب يشعر بغصة وبغربة داخل مدينته، لأنه لم ير فيها إلا الضعفاء والمنافقين، وهو ليس من هؤلاء ولا من هؤلاء..

هو من أولئك الذين يكابدون خلف النبي ﷺ لمجابهة الروم الذين تأهبوا للقضاء على هذه الدولة الجديدة، لكنه التسويف الذي يورث الندم، ويكدس الوظائف ويصيب الإنسان بالإحباط.

لم يكن كعب وحيداً في معاناته.. هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع يمران بالتجربة المريرة نفسها، ولما تحدث الناس عنهما أمام كعب قال: مثنياً عليهما «ذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا فيهما إسوة»<sup>(٢)</sup> ثلاثة من السابقين إلى الإسلام يبحثون عن مخرج مما هم فيه، ولا سبيل؟ فالنبي عليه السلام الآن في طريقه يشق السراب والعطش والقفار، في قيظ محرق ولهيب مشتعل. وإذا كان هؤلاء الثلاثة قد فقدوا الأمل باللحاق به عليه السلام، فإن رجلاً رابعاً لم يتسلل اليأس إلى نفسه..

إنه الرجل الذي تصدق بالصاع وسخر منه المنافقون:

(١) صحيح البخاري ٤-١٦٠٢.

(٢) صحيح مسلم ٤-٢١٢٤.

## أبو خيثمة يلحق بالنبي

في قصة تفيض بحب الله ورسوله.. يتحدث عنها سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فيقول: «حتى إذا سار رسول الله ﷺ رجع أبو خيثمة ذات يوم إلى أهله في يوم حار فوجد امرأتين له في عريشين لهما، في حائط قد رشت كل واحدة منهما عريشها، وقد بردت له فيها ماء، وهيات له طعاماً، فلما دخل قال: رسول الله ﷺ في الضح والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وماء بارد، وطعام مهياً، وامرأة حسناء، في ماله مقيم! ما هذا بالنصف. والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيناً لي زاداً.

ففعلتا، ثم قدم ناضحة فارتحل، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي يطلب رسول الله ﷺ، فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك قال لعمير: إن لي ذنباً فلا عليك أن تخلف عني حتى أقدم على رسول الله ﷺ فسار»<sup>(١)</sup> فتقدم أبو خيثمة قبله نحو النبي ﷺ.. الذي كان يعاني وأصحابه من لهيب القيظ، وشدة العطش إلى درجة لا يستطيع التعبير عنها إلا الذي عاناها وكابدها.. ومن بين هؤلاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي يقول: «خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، حتى أن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبتة ستقطع، حتى أن الرجل ينحر بعيه فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده. فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا. فقال: أتحب ذلك؟ قال: نعم. فرفع يده فلم يرجعهما حتى قالت السماء، فأظلمت، ثم سكبت فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر، فلم نجدها جازت العسكر»<sup>(٢)</sup> أي أن السحابة أمطرت على معسكر المؤمنين فقط.

معاناة شديدة تكشف عن طبيعة هذا الدين، وأن الله قضى أن لا ينتشر ويحكم في الأرض إلا بجهد البشر وتضحياتهم، وبدون ذلك لن يتمكن أبداً. أما المعجزات

(١) سنده قوي وهو جزء من حديث ابن إسحاق السابق، وله شاهد عند الطبراني ٦-٢١.

(٢) سنده صحيح رواه ابن خزيمة ١-٥٢ من طريق ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن عتبة بن أبي عتبة عن نافع بن جبير عن ابن عباس. ابن وهب إمام وشيخه مثله، وسعيد صدوق، وعتبة وشيخه ثقتان. وكلهم من رجال التقريب.

الحسية، فهي أدلة وبراهين تأتي مع الأنبياء، وتغادر معهم، لكن حتى المعجزات تقف طويلاً على أبواب العناد الموصدة بأقفال صدئة.. كأبواب المنافقين التي أقفلوها، وأقفلوا عقولهم دونها قديماً وحديثاً.

## المنافقون لا تنفع معهم حتى المعجزات

في الطريق إلى تبوك آية كالشمس.. معجزة إلهية في السماء، وآثارها على الأرض.. لا تحتاج إلى بيان، لكن عقول المنافقين قد تعفنت مع الزمن والعناد.. سأل رجل أحد الصحابة عن النفاق والمنافقين فقال له: «هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم؟ قال: نعم، والله إن كان الرجل ليعرفه من أخيه ومن أبيه، ومن بني عمه ومن عشيرته، ثم يلبس بعضهم بعضاً على ذلك. لقد أخبرني رجل من قومي عن رجل من المنافقين معروف نفاقه، كان يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار، فلما كان من أمر الحجر<sup>(١)</sup> ما كان، ودعا رسول الله ﷺ حين دعا، فأرسل الله السحابة فأمرت حتى ارتوى الناس، أقبلنا عليه نقول: ويحك أبعد هذا شيء؟ قال: سحابة مارة.

ثم إن رسول الله ﷺ سار حتى كان ببعض الطريق ضلت ناقته، فخرج أصحاب رسول الله ﷺ في طلبها، وعند رسول الله ﷺ رجل من أصحابه يقال له (عمارة بن حزم) وكان عقيباً بديراً، وهو من بني عمرو بن مخزوم، وكان في رحله (يزيد بن نصيب القينقاعي) وكان منافقاً فقال يزيد - وهو في رحل عمارة وعمارة عند النبي عليه السلام-: أليس محمد يزعم أنه نبي، ويخبركم عن خبر السماء، ولا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله ﷺ وعمارة عنده: إن رجلاً قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي، ويزعم أنه يخبركم بخبر السماء وهو لا يدري أين ناقته، وإنني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني عليها وهي في هذا الوادي من شعب كذا وكذا، وقد حبستها شجرة بزمامها. فانطلقوا حتى تأتوني بها.

فذهبوا فجاءوا بها، فرجع عمارة بن حزم إلى رحله فقال: والله لأعجب من شيء حدثته رسول الله ﷺ أنفاً عن مقالة قائل أخبره الله عنه كذا وكذا للذي قال يزيد ابن نصيب..

(١) الحجر ديار ثمود قوم صالح شمال المدينة.

فقال رجل ممن كان في رحل عمارة ولم يحضر رسول الله ﷺ: ابن نصيب والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي.

فأقبل عمارة على يزيد يجافي عنقه ويقول: يا آل عباد الله إن في رحلي لداهية وما أشعر، أخرج أي عدو والله من رحلي فلا تصحبني<sup>(١)</sup> ولا يلام عمارة بما فعله بيزيد المنافق هذا، فهؤلاء الذين أغلقوا ضمائرهم وعقولهم، وأكل الحسد والعناد قلوبهم، واستنفدوا كل طرق الإقناع.. لا يجدي معهم سوى الترك، لأنه لا فائدة ترجى ولا أمل يبقى، فلا داعي لإهدار وقت يستحقه غيرهم ممن يتلهفون للحقيقة والتوحيد.

لم يكن العطش وحده.. الخوف كذلك كان يخيم على بعض مراحل الطريق إلى تبوك..

يقول المتدلي من حصن الطائف نحو الإسلام (أبو بكر) رضي الله عنه: «صلى النبي ﷺ في خوف الظهر، فصف بعضهم خلفه، وبعضهم بإزاء العدو، فصلى بهم ركعتين، ثم سلم، فانطلق الذين صلوا معه فوقفوا موقف أصحابهم، ثم جاء أولئك فصلوا خلفه فصلى بهم ركعتين ثم سلم، فكانت لرسول الله ﷺ أربعاً ولأصحابه ركعتين ركعتين»<sup>(٢)</sup>

كما كان عليه الصلاة والسلام يجمع في طريقه ذلك بالطريقة التي يقول عنها «معاذ بن جبل: أن النبي ﷺ كان في غزوة تبوك إذا ارتحل قبل زيف الشمس أخرج الظهر حتى يجمعها إلى العصر، فيصليها جميعاً، وإذا ارتحل بعد زيف الشمس صلى الظهر والعصر جميعاً ثم سار»<sup>(٣)</sup>. وكان إذا ارتحل قبل المغرب أخرج المغرب حتى يصلها مع

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه ابن حزم في المحلى ١١-٢٢٢ والطبري في التاريخ ٢-١٨٤: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان الطفري قال: قلت لمحمود ابن لبيد: وعاصم تابعي مر معنا كثيراً ثقة عالم بالمغازي وشيخه صحابي.

(٢) سنده على شرط البخاري رواه أبو داود وغيره ٢-١٧ من طرق عن أبي حرة والأشعث وهما ثقتان عن الحسن عن أبي بكر والحسن مدلس، والبخاري رحمه الله روى بهذا السند أربعة أحاديث وربما أكثر في: الركوع دون الصف، والكسوف، وتولية المرأة، وأن الحسن سيصلح به الله بين فتنتين. وأبو بكر لم يسلم إلا بعد حنين.

(٣) ملخص ما يفعله عليه السلام في الجمع، أنه إذا تحرك قبل دخول وقت الصلاة الأولى أخرج الجمع، وإذا أذن المؤذن قبل أن يتحرك قدم الجمع ثم انطلق.

العشاء، وإذا ارتحل بعد المغرب عجل العشاء فصلها مع المغرب»<sup>(١)</sup> هذا عن الجمع والقصر، أما عن:

## الصيام في السفر الشاق

الصيام في هذا السفر الشاق حدث من بعض الصحابة، «جابر بن عبد الله قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة تبوك، وكانت تدعى غزوة (العسرة) فبينما نسير بعدما أضحى النهار، فإذا هو بجماعة تحت ظل شجرة، فقالوا: يا رسول الله رجل صام فجهده الصوم؟ فقال ﷺ: ليس البر أن تصوموا في السفر»<sup>(٢)</sup>

كان النبي ﷺ وأصحابه قد وصلوا إلى مكان اسمه حجر ثمود وهو ما يسمى بـ (مدائن صالح) وهو المكان الذي كانت تعيش فيه قبيلة ثمود، وهم قوم النبي صالح عليه الصلاة والسلام الذي أهلكهم الله بعد كفرهم وقتلهم الناقة، التي جعلها الله آية ومعجزة لنبيه، وبعد:

## الوصول إلى ديار ثمود

أسرع بعض الصحابة يروون عطشهم، ويستسقون الماء ويعدون الطعام مستخدمين الماء الموجود في هذا المكان، لكنهم فوجئوا بصوت مرتفع يناديهم: الصلاة جامعة.. الصلاة جامعة...

وهي لفتة ينادي بها النبي ﷺ أصحابه للاجتماع داخل المسجد أو خارجه. فما الذي حدث؟

(١) سنده صحيح رواه الترمذي ٢-٤٢٨ وابن حبان ٤-٣١٣ والبيهقي في الكبرى ٢-١٦٣ عن قتيبة بن سعيد الثقفي ثنا الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الطفيل عن معاذ بن جبل. يزيد تابعي ثقة فقيه وتابعه أبو الزبير وقد عنعن لكن ذلك لا يضر فهو من طريق الليث كما صرح بالسماع عند الدارمي ١-٤٢٦ وأبو الطفيل صحابي.

(٢) سنده حسن رواه ابن حبان ٨-٢٢١ حدثنا عمارة بن غزية عن محمد بن عبد الرحمن بن زرار عن جابر وقد أخطأ عمارة، والصواب هو ما قاله ابن أبي حاتم في العلل ١-٣٣١ قال أبي: روى هذا الحديث شعبة عن محمد بن عبد الرحمن عن محمد بن عمرو بن الحسن عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ ومحمد ابن عمرو تابعي ثقة وكذلك تلميذه.

يقول أحد الصحابة: «نزل رسول الله ﷺ بالناس عام تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستسقى الناس من الآبار التي كان يشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم»<sup>(١)</sup> و«لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من بئرها، ولا يستقوا منها، فقالوا: قد عجننا منها واستقينا. فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء»<sup>(٢)</sup>

و«قال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم، ثم تقنع بردائه وهو على الرحل»<sup>(٣)</sup> «ثم زجر فأسرع حتى خلفها»<sup>(٤)</sup> فنهض الصحابة «فأهراقوا القدور وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا. قال: إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم»<sup>(٥)</sup> «وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة»<sup>(٦)</sup> فامتثلوا أمر نبيهم عليه السلام، ثم قام النبي ﷺ في أصحابه خطيباً وحدثهم عن قوم صالح، وعن مصير الرجل الشهير أبي رغال. فما هي..

### خطبة النبي ﷺ

يقول جابر رضي الله عنه: «لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: لا تسألوا الآيات، وقد سألتها قوم صالح، فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم، ففقروها، فكانت تشرب ماءهم يوم، ويشربون لبنها يوماً، ففقروها، فأخذتهم صيحة أهدم الله عز وجل من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله عز وجل.

قيل: من هو يا رسول الله؟ قال: هو أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»<sup>(٧)</sup>

(١) حديث صحيح رواه البخاري وأحمد واللفظ له وسند أحمد صحيح ٢-١١٧ حدثنا عبد الصمد حدثنا صخر يعني بن جويرية عن نافع عن بن عمر قال وصخر ثقة.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٢٣٦.

(٣) صحيح البخاري ٣-١٢٣٧.

(٤) صحيح مسلم ٤-٢٢٨٦.

(٥) هو جزء من حديث أحمد السابق أحمد ٢-١١٧.

(٦) صحيح البخاري ٣-١٢٣٧.

(٧) سنده صحيح على شرط مسلم رواه أحمد ٢-٢٩٦ ثنا عبد الرزاق ثنا معمر عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الزبير عن جابر وأبو الزبير مدلس لكنه صرح بالسماع عند الفاكيهي في أخبار مكة ٢-٢٥١.